



في شهادة لأحد ضباط "الحركة الوطنية للضباط الأحرار" الجزائرية، أبدى تعجبه الشديد فيها من صدور عفو شامل في أول نوفمبر 1989 عن الضباط المتورطين في التعذيب في وقت أفرج فيه عن عشرات من مسلحي "الحركة الإسلامية المسلحة" ح.إ.م التي ترك لها المجال لتتمدد في الجبال قبل الانتخابات الجزائرية تحضيراً لسيناريو الفوضى والإرهاب في أغراض إلغاء الانتخابات النيابية في حال تجاوزت الجبهة الإسلامية للإنقاذ نسبة 30% من مقاعد البرلمان (النسبة التي كان سيسمح بها الجنرالات للتعايش مع الجبهة تحت قبة البرلمان).

كان قادة الجبهة حديثي عهد بسياسة وبنقيب موازین القوى الحقيقة في الأرض، لم يفهموا قواعد اللعبة فاندفعوا فتم إقصاؤهم وتدميرهم.. بدأ العمل المسلح تحت مطرقة القمع، كانت الجبهة أو ما تبقى منها متربدة لكن كان المسلحون المخترون في الجبال جاهزين للعب دورهم في الإجهاز على ما تبقى من ثورة ما بعد مصادرة التجربة الديمقراطية في الجزائر.

بعض قادة الإنقاذ من تيار الجزارة انضموا لاحقاً للكيان المخترق الواليد المسمى بالجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا) وريثة ح.إ.م، وبرغم ما قيل عن نضج أفكار هذا التيار إلا أن بعض أبرز قادته قد أعلنوا "الاندماج" ووقعوا وثيقته، بدأ تهميشهم لاحقاً، ثم وجدت جثثهم تباعاً في الجبال، أبرزهم كان الشيخ مصطفى السعيد، وعبدالرازق رجام اللذان أعدما رمياً بالرصاص من قبل قائد الجماعة بتهمة "الخيانة".

تذكرت هذه القصة جيداً، وأنا أقرأ أبناء اتفاق الاندماج في سوريا، والذي يفضي في النهاية إلى تمكين أحد الفصائل الذي تميز بمنهجه المتعالي عما سواه من لعب دور رئيس في التشكيل الجديد في سوريا تحت لافتة "الاندماج". صحيح أن الجيا تختلف في منهجها وديمويتها كثيراً عن هذا الفصيل، لجهة الإفراط في التكفير والإسراع في القتل، لكنهما يتقاسمان منهجاً إقصائياً لطالما أفضى إلى الوصول إلى النقطة التي تريدها الأنظمة الشمولية تماماً.

كان دور الجيا هو تمثيل "ثقب أسود" يبتلع كل المسلمين وأصحاب الأفكار الراديكالية ثم تدمير نفسها بهم، كان دور

"مجلس شورى المجاهدين" الذي تشكل في الأنبار في ظل حصار والعدوان الأمريكي على مدينة الفلوجة هو ذاته سواه أكان باختراق أم لم يكن، لقد دمر هذا المجلس الذي ورثه الزرقاوي المقاومة العراقية للاحتلال تماماً عبر توزيع اتهامات الخيانة والصحوات على جميع فصائل المقاومة العراقية ثم انزوى تماماً ليعود بشكل جديد في سوريا والعراق للعب الدور ذاته. تدغدغت مشاعر الشباب المسلح في سوريا - كالعادة - للخطاب الراديكالي الذي يعيش حالة إنكار مع الواقع السياسي العالمي، فاجتذبت البسطاء منهم ولم تزل، ثم انتفشت فاجتذب البسطاء من "القاده" و"الشرعين"، لتبدأ فصول المسلسل المعروض.

مكمن هذا الاندفاع معلوم، فلم تقتت تنظيمات الغلو يوماً إلا على واقع أسيف، يغذي خطابها المندفع فكريأً وميدانياً، فلولا الهزائم التي منيت بها فصائل وسطية في سوريا ما اندفع البسطاء في صف الغلاة، ولو لا قلة الدعم الإقليمي لتلك الفصائل، والتفوق الذي تعمد محركات الاختراق في ترجيح كفة الغلاة به لما حصل هذا، لو لا الواقع الدولي الرافض لإرادات الشعوب ما تمدد مثل هؤلاء ووجدوا لخطابهم جاذبية، ثم لو لا الإدارة السياسية الإقليمية المخفقة دوماً من الدول التي أعلنت تأييدها للثورة السورية، ولو لا المفاوضات الهزلية والاتفاقات الموجعة لما وجد هؤلاء ضالتهم، إذ أفضت هذه السياسات البائسة إلى خذلان الفصائل الوسطية وارتفاع أسهم الغلاة ليس في سوريا وحدها بل في كل مكان بالمحيط الإقليمي.

يدرك البسطاء أن هذا التنظيم لا يقبل أبداً إلا أن يقود، لا لكونه مشبوهاً بالضرورة، وإنما لأنه ينظر للآخرين جميعاً من عدسه الريبة والتکفير، فهم إن لم يكونوا "كافاراً" فهم "مشاريع كفار"، وإن لم يصبحوا بعد "صحوات" فسيكونوها عن قريب! يدرك البسطاء هذا ثم ينكرونه بأنفسهم وكأنهم مسحورون!

يعلمون عن يقين أن هذا التنظيم لم ير أبداً لأحد ولایة عليه، حتى حين كان زعيمه يباعي الملا عمر أميراً للمسلمين! نعم، حتى كانوا يدينون للرجل بالولاء ويعترفون له بالولایة احتفظوا لأنفسهم بتنظيم، بل خرجنوا عن ولایته تلك بادعاء مسؤوليتهم عن أحداث 11 سبتمبر بأمريكا ومن ثم جلب كل جيوش العالم لطارد جيش الرجل وتتنزع "ولایته" تلك دون استئذان أو إھاطة! يعلنون الحرب على الدولة العظمى من داخل دولته وتحت ولایته وهم له مبایعون، فكيف لو لم يكونوا كذلك!

الاندماج الانتحاري الذي أقدمت عليه فصائل من الثورة السورية بعيداً عن وقوفهم به في فخ من لا يرضون لغيرهم إلا اتباع العبيد، هو أيضاً انتحاري لجهة عدم واقعيته واصطدامه بحائط سميك من نظام دولي لن يسمح أبداً إلا بتركيع من لا يقبلون بقدر من التعايش معه على نحو تقدر فيه الفصائل موازين القوى وأقدار المصالح والمفاسد المجنلة والمترتبة على ما يصنعون من سياساتهم وخطواتهم.

الطريق كان معلوماً منذ اللحظة الأولى للوحدة في سوريا للفصائل الثورية، وهو البناء على الواقع عبر كيانين سياسي وميداني متناقضين قادرین على التعامل السياسي الواقعي، آخذین بالاعتبار جميع محددات الاستراتيجية والواقع، تحت مظلة علمائية حكيمة راسخة. وسوى هذا هدر وهزر، دونه انتحار بمعنى الاندماج، دونه تكرار النماذج الجزائرية والعراقية والأفغانية الإرهابية البائسة.

نعم، ليس ثمة رضا عن الحالة البائسة التي آلت إليها الفصائل السورية، ولا مفاوضات أستاننا، ولا انسحابات الفصائل المتواالية تحت ضغط القوى الإقليمية والواقع الميداني والانكشاف الجوي والتدمير الأهلي، ليس هناك رضا عن استلام الداعمين لإرادات المقاومين، ولا التدخلات الخارجية الشائنة في مسار الثورة السورية، ليس هناك رضا أبداً عن مجمل الجبهات المسكنة عبر الغرف الدولية المشبوهة، لكن مع كل هذا فلن يكون الحل أبداً في الاصطفاف مع الغلاة والخضوع

لهم وتكرار مآسي العراق والجزائر وأفغانستان وغيرها مع اختلاف التجارب والنماذج.. لن يكون الحل بتسلیم رقبة المقاومة لمن ينحرها في مذبح الغلو والتفرد بالقيادة والقرار، أو الاختراق سواء بسواء في المال.

الثورة السورية مرت بمنعطفات وعراقييل معروفة تماماً لمن أراد رصدها وتعيّن أسباب تراجعها، وهي مبرمجة لتنهي هذه النهاية، لكن لم يزل هناك أمل في الانتباه إلى خطورة السير في الطريق حتى منتهاه الخطين، حيث لا السنن الربانية تتفق مع هذا العبث، ولا الحسابات السياسية، ولا الرؤى الاستراتيجية. وفي قلب هذا، قد لا تستطيع تخوين هذا الفصيل أو ذاك أو اتهامه بالعملة، لأنك لا تملك أدلة دامغة، فالقيم والأخلاق تدعونك لهذا بالتأكيد، لكن يوسعك أن تدرك أن سلوك بعض الفصائل يفضي تماماً إلى ذات المسار الذي تسلكه فصائل مخترقة أو عميلة.

الاندماج الأخير على الساحة السورية ليس إلا مشروع انقلاب عسكري على الفصائل السورية من فصيل لا يرى نفسه إلا في الصدارة؛ فاقتتص "وزارة الدفاع"! وليس بهذه الروح ينتصر المخلصون، ولا بهذا الأسلوب يمكن أن تنجح ثورة، وإذا كان السلوك الاجتماعي حيال المناطق التي حكمها هذا الفصيل تبرهن على هذه الإقصائية والتفرد، والاستبداد أحياناً، حيث التكفير المفرط، والسجون المتخصمة بالمناضلين، والقمع المستمر للمظاهرات، إذا كان هكذا فلن يصلح هذا بمزيد من الإمساك بتلابيب السلطة داخل المناطق المحررة، كما لا يصلح أن يقود "ثورة" من لا يؤمنون بها بالأصل، ولا يعالجون واقعاً دولياً وإنقليماً معقداً من ينظرون للعالم من ثقب إبرة.

إن الطريق واضحـة، عرفها من قبل أمثال حجي مارع، حسان عبود، - من نحسبهم ذابوا إخلاصاً في الثورة وتفانيناً في تحقيق أهدافها النقية - - ممن ملؤوا مناطقهم المحررة حباً للبسطاء والمغضطهدين، وممن نشروا العدل في ربوعها ولأنوا للمخلصين، أما صائدو الفرص لتحقيق أجنداتهم الغريبة فلن يحصد المندمجون معهم إلا حصاد القتاد.

المصادر: